ظاهرة العدول وأهميتها في توسيع المعنى وتوليد اللغة

الدكتور: حميدة مداني

جامعة ابن خلدون ـ تيارت ـ الجزائر

يختلف كل متكلم عن آخر بما يملكه من أساليب وتراكيب لغوية، إضافة إلى المعجم اللغوي الذي هو بديهية لا مساومة فيه بإعتباره مبدأ أساسيا في إمتلاك ناصية اللغة، وتختلف اللغة أيضا من شخص لآخر بحسب قدرته على إستعمالها وفق علاقات يُرتب فيها مستوياتها وينسج بها خصائص تدع المتلقي يختار لغة متكلم دون آخر، ولا يتأتى ذلك إلاّ من خلال طريقة رصفه لتلك المفردات ووضعها في علاقات نحوية بضوابط يمكن له أن يخالف الأصل فيها؛ فيرتقي إلى درجة الإبداع، ويكسر نظاما سائدا لا على حساب القاعدة بل لتوسيع المعنى وتوليده.

الكلمات المفتاحية: المتكلم؛ الكلام؛ التراكيب اللغوية؛ المعجم اللغوي؛ النحو؛ الإبداع؛ المعنى.

The Phenomenon of Discarding and its Importance in Expanding Meaning and Generating Language

Abstract: Each speaker differs from another with his own methods and linguistic structures, in addition to the linguistic dictionary, which is an axiom that is not compromised as a basic principle in owning the language's cornerstone. The language also differs from one person to another according to his ability to use it according to relationships in which levels are arranged and woven with characteristics that allow the recipient to choose the language of a speaker rather than another. This can only be achieved through the way he paves those vocabulary words and puts them in grammatical relationships with controls that he can contradict the original in them: he uplifts to the point of creativity, and breaks a prevailing system not at the expense of the rule but rather to broaden and generate meaning.

Keywords: Speaker, speech, linguistic structures, linguistic dictionary, grammar, creativity, meaning.

لاشك أن القدرة على الكلام تتفاوت بين الناس؛ فهناك خطيب يحسن التعامل فيستميل مخاطبيه، ويغريهم بملكة خطابه ويفتنهم بجميل عباراته؛ وثان بليغ يوجز فيفهم، وثالث يطيل ويطنب فيحسن اطنابه، ويبني كيانا مقصودا ويمزج أنساقا يسهل من خلالها النفاذ الى ذات المتلقي، ورابع يطنب فيساء فهمه ولا يستجلى مقصوده، فيفشل في بلوغ

تاريخ تسليم البحث: 01 ماي 2016.

تاريخ قبول البحث: 25 فبراير 2017.

هدفه، فثمة فرق في الإفهام بما يحويه كلام المخاطب(بكسر الطاء) من عبارات وأنساق وأساليب بلاغية متنوعة، وايقاعات وإغراء وافتتان ومراودة من أجل بلوغ الغاية، الا وهي الاقناع، ويذكر في هذا الصدد الجاحظ(ت255هـ) فيقول:« وكلام الناس في طبقات كما أن الناس أنفسهم طبقات، فمن الكلام الجزل والسخيف والمليح والحسن، والقبيح والسمج، والخفيف والثقيل، وكله عربي وبكل قد تكلموا » [(1)].

والكلام عند الرماني (ت386هـ) حسن وقبيح، حيث يرى أنه ليس كل من أبلغ مراده بليغا« وليست البلاغة إفهام المعنى، لأنه قد يفهم المعنى متكلمان أحدهما بليغ والآخر عيي ولا البلاغة أيضا بتحقيق اللفظ على المعنى، لأنه قد يحقق اللفظ على المعنى، لأنه قد يحقق اللفظ على المعنى وهو غث مستكره ونافر متكلف، وإنما البلاغة في إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ[2]» وفي نفس الصدد يذكر أن الكلام حسن وقبيح« فالقبيح كالتخليط والمحال الذي لا يتضح به المعنى، والحسن هو الكلام المبين عن معان واضحة[3] »

أما الخطابي(ت 388هـ) فالكلام عنده على أجناس مختلفة« فمنها البليغ الرصين الجزل، ومنها الفصيح القريب السهل، ومنها الجائز الطلق الرسل، وهذه أقسام الكلام الفاضل المحمود دون النوع الهجين المذموم، الذي لا يوجد في القرآن شئ منه البتة ».[4]

كما بيّن في موضع آخر قصدية المخاطب وحمل المتلقي على الفهم بمستوى إدراك المتلقي للخطاب حين يقول: «مدار الأمر على إفهام كل قوم بمقدار طاقتهم، والحمل عليهم على مقدار منازلهم»[(5)]. ومن جملة ما يتحقق فيه سمو الكلام كما هو معلوم الشعر الذي لا يقف عند حد يمليه الضابط اللغوي، بل يتجاوز ذلك بغية تحرير اللغة بخلق أساليب جديدة للوصول إلى غاية ذلك، وهو الإبداع الذي يمثل الصورة المثلى لأي عمل أدبي كان، وقد ذكر "تشومسكي" ضوابط الإختيار التي تكون بمثابة القواعد الأساسية والمبادئ الأولية في اِمتلاك ناصية اللغة، حيث يقول في هذا الصّدد: «..قدرته على تمييز المشترك اللفظي من خلال العلاقات النحوية وانضمام بعض الكلمات»[(6)] كما أنه عالج الجمل التي يقع فيها تجاوزات لضوابط الاختيار وصنفها إلى ثلاثة أنماط[(7)]، وما يهمنا في ذلك هو ذلك التّجاوز لقاعدة الاِختيار كما في قوله تعالى: ﴿**وَاسْأَلْ الْقَرْيَةَ**﴾ (سورة يوسف، الآية: 82)، فهو لا يلغي المعنى الأصلي الذي هو سؤال أهل القرية، فاِختصر وأجاز ؛فأدت الآية معناها في أبلغ صورة، إن كَسْر قاعدة الاِختيار جاء للرفع من قيمة الأسلوب الكلامي والتّدرج في معاني تخرج عن المألوف.

إنّ المتكلم يملك زخما من المفردات، وأنماطا من التراكيب وله حرية اِختيار الأسلوب الذي ينتج به الكلام، دون أن يتعدى تلك الضوابط فـ***اِبن جني*** يتحدث عن ذلك بقوله: «ألا تراك حين تسمع (ضرب) قد عرفت حدثه، وزمانه ثم تنظر فيما بعد، فتقول: هذا فعل، ولابد

له من فاعل، فليت شعري من هو؟ وما هو؟ فتبحث حينئذ إلى أن تعلم الفاعل من هو وما حاله، من موضوع آخر لا مسموع (ضرب)، ألا ترى أنّه يصلح أن يكون فاعله كل مذكر يصح منه الفعل، مجملا غير مفصّل، فقولك ضرب زيد، وضرب عمرو، وضرب جعفر، ونحو ذلك شرع سواء، وليس لضرب بأحد الفاعلين هؤلاء ولا غيرهم خصوص ليس له بصاحبه، كما يخصّ بالضّرب دون غيره من الأحداث، وبالماضي دون غيره من الأبنية»[8].

فمن خلال كلام "ابن جني" بأن كل فعل يدل على حدث وزمن في حالة اِنعزاله عن التركيب، وأن المعنى النحوي للفعل (ضرب) هو الفعلية، فالاِختيار في بناء الكلام يتوفر على عنصرين هامين فيه، وهما اِختيار اللفظ وكذلك موقع هذه اللفظة، واِرتباطها بما سبقها وبما بعدها وهو ما يصح في البلاغة من القول على اِعتبار هذا التركيب جزء من اِنسجام الكلام بهذه العلاقات التي تجمع بين مختلف المفردات. ولعل من ضمن ما ثبت من شواهد في الإخفاق في حسن الاِختيار ما روته العرب وخصوصا علماء اللغة حين عابوا على الشاعر في قوله[9]:

سَأَطْلُبُ بُعْدَ الدَّارِ عَنْكُمْ لِتَقْرَبُوا وَتَسْكُبَ عَيْنَاي الدُّمُوعَ لِتَجْمُدَا

فأنكر جل النحويين والبلاغيين لفظ (لتجمدا) وعدوه من سوء الاِختيار لأنّه كما يقول "الجرجاني "في ذلك «نظر إلى أنّ الجمود خلو العين من البكاء واِنتفاء الدموع عنها، وأنّه إذا قال (لتجمدا) فكأنه قال (أحزن اليوم لئلا أحزن غدا، وتبكي عيناي جهدهما لئلا تبكيا أبدا)، وغلط فيما أظّن، وذاك أن الجمود هو أنّ لا تبكي العين، مع أنّ الحال حال بكاء، ومع أنّ العين يراد منها أن تبكي ويشتكي من أن لا تبكي»[10].

ويذكر "الجرجاني" في موقع آخر يصف فيه معنى الاِختيار، ووقوع الاِنسجام في صورة الكلام الذهنية وحالة المنطوق به «أن ليست المزيّة بواجبة لها في أنفسها (أي المعاني النحوية) ومن حيث هي على الإطلاق، ولكن تعرض بسبب المعاني والأغراض التي يوضع لها الكلام، ثم بحسب موقع بعضها من بعض، واِستعمال بعضها مع بعض»[11].

ويضيف في موقع يدور حول الموضوع نفسه فيقول: «وإذا كان النّظم سويا والتأليف مستقيما كان وصول المعنى إلى قلبك، تلو وصول اللفظ إلى سمعك»[12].

ويذكر في هذا الصدد **محمد حماسة عبد اللطيف** «بأنّ جانب الاختيار إبداعي، وهو غير محصور لأن إمكاناته لا يمكن حصرها، وهو متجدد أبدا باستعمال اللغة لا ينفذ ولا ينتهي، يختلف فيه متكلم عن آخر»[13].

ولتباين واختلاف أساليب الكلام من شخص لآخر، هناك من يملك القدرة على الاستحواذ على قلب السامع، فيلج بخطابه ذات الآخر لأنه اختار من الكلمات ما يناسب مقتضى الحال ويقول شكري عياد في هذا: «لكل فرد معجمه اللغوي المتميز، فهو يميل إلى

اِستعمال بعض الكلمات دون بعضها الآخر، وهناك كلمات يستعملها على الإطلاق، وإن كان يفهم معانيها، وكلمات لا يستعملها ولا يفهم معانيها لأنها خارجة عن دائرة تعامله أو وعيه»[14].

إن الضّوابط اللّغوية وإنتظامها في ربط العناصر اللغوية في خطاب ما، هي تلك الفوارق بين الكلام من مخاطب إلى آخر، إنما تتجلى جماليتها عندما تغدو خروجا عن المألوف، وتتكامل فيها جملة من الشروط التي تحقق البعد البلاغي والدلالي، اللذان يتوشجان في بناء نص يرقى بعمق معناه وقصدية صاحبه وتأويل متلقيه بحضور المعنى القريب وتزاحم المعاني المغيّبة ليسمو النص إلى ما يجب أن يصبوا إليه وهو حقيقة الإبداع.

إنّ المعترك القائم إنّ صح التعبير في تداخل النحو والبلاغة في علوم اللغة على اختلافها، أوجد تراكما لمفاهيم، وسعت وأسهمت بشكل جلي في الدراسة اللغوية والأدبية على حد سواء، ويبدو ذلك جليا من خلال الاتجاهات الحديثة، والمعاصرة باعتبارها أقحمت في اللغة حتى كدنا نرى ذوبان لحدود الأجناس الأدبية في مستوى الخطاب؛ إذا استثنينا من ذلك الشعر لوجود ضوابطه الخاصة من قافية ووزن.

إن براعة التصوير الفني ومطابقة الكلام لمقتضى الحال، والتفاوت في أساليب التعبير، وتجاوز المألوف من خلال توقع الكلام، وإطراب السمع وتضافر المعاني، وتفاضلها إنما هي إضفاء لتلك اللمسة الجمالية التي تأنس لها النفس، ويستسيغها المتلقي، ويستحسنها، فتجعل النص بذلك يفاضل بعضه عن بعض، وفي هذا الباب يحدد الجرجاني المعاني في مواقعها، فإذا اوجب لمعنى أن يكون أولا في النفس وجب للفظ الدال عليه أن يكون مثله أولا يفي النطق[15].

ولئن ذكرنا ما تعلّق بالخطاب، وتعدّد المعنى والتأويل ؛فإنه بالضرورة تحضرنا الدراسات اللغوية والدلالية، والكشف عما اكتنفه عمق ذلك الدرس اللغوي عند الأقدمين من غموض الدلالة خصوصا؛ إذا تعارض مع الوجه المنطقي، فيحمل النص إلى تأويل يخرج إلى مسلك تُرشّد فيه الدلالة بما لا يتعارض مع الحقيقة الشرعية، ويذهب عبد القاهر الجرجاني في ذلك «اعلم أن لهذا الضرب اتساعا وتفننا لا إلى غاية إلا أنه على اتساعه يدور في الأمر الأعم على شيئين-الكناية والمجاز»[16].

ويذكر ابن قتيبة (ت:276ه) في مآخذ القول باب المجاز الذي يعد توليدا لغويا ومتسعا، لطرائق القول فيقول: «وللعرب المجازات في الكلام، ومعناها طرق القول ومآخذه ففيها الاستعارة، والتمثيل والقلب والتقديم وتأخير، والحف، والتكرار والإخفاء، والإظهار، والتعويض والإفصاح والكتابة، والإيضاح ومخاطبة الواحد مخاطبة الجميع، والجميع خطاب الواحد، والواحد والجميع خطاب الاثنين، والقصد بلفظ الخصوص معنى العموم، وبلفظ العموم بمعنى الخصوص، مع أشياء كثيرة»[17].

كما أعطى "الجرجاني" أهمية خاصة لذلك التداخل الكبير بين النحو والبلاغة في عملية النظم والذي يمثل فيه المجاز مقتضى الوجود، إذ يقول: «هذه المعاني التي هي الاستعارة والكناية والتمثيل وسائر ضروب المجاز من بعدها من مقتضيات النظم وعنها يحدث وبها يكون، لأنه لا يتصور أن يدخل شيء منها في الكلم وهي أفراد، ولم يتوخ فيها حكم من أحكام النحو، فلا يتصور أن يكون همنا فعل أو اِسم قد دخلته الاِستعارة من دون أن يكون قد ألف مع غيره، أفلا ترى أنه إن قدر في "اِشتعل" من قوله تعالى: ﴿واشتعلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾ أن يكون (الرّأس) فاعلا له، ويكون (شيبا) منصوبا على التّمييز، لم يتصوّر أن يكون مستعارا؟ وهكذا السّبيل في نظائر الاِستعارة فاِعرف ذلك»[18].

فبهذا يثبت لنا **الجرجاني** مدى أهمية المجاز في اِتّساع المعنى وما لدلالة الاِستعارة في مخيلة المخاطب فهي مفتوحة للتأويل والتجاوز عن المعنى القريب ويذكر "الجاحظ "أهمية المجاز خصوصا في نظم الشعر فيقول: «وقد يشبِّه الشعراء والبلغاء الإنسان بالقمر والشمس، والغيث والبحر، وبالأسد والسيف، وبالحية والنجم، ولا يخرجون بهذه المعاني إلى حد الإنسان، وإذا ذموا قالوا: هو الكلب والخنزير، وهو القرد والحمار والتيس، وهو الذئب، ثم لا يدخلون هذه الأشياء في حدود الناس ولا أسمائهم، ولا يخرجون بذلك الإنسان إلى هذه الحدود وهذه الأسماء»[19].

ويربط "الجرجاني" سمو الخطاب بما يتضمنه من امتلاك المخاطب لناصية اللغة فيقول في ذلك: «لا يخلو السامع من أن يكون عالما باللّغة وبمعاني الألفاظ التي يسمعها أو يكون جاهلا بذلك، فإن كان عالما لم يتصور أن يتفاوت حال الألفاظ معه فيكون معنى اللفظ أسرع إلى قلبه من معنى لفظ آخر وإن كان جاهلا كان ذلك في وصفه أبعد»[20].

وللمجاز دور كبير خصوصا في نصرة المذاهب والاِحتجاج والإقناع بالصّور والتّأويلات التي تدخل تحت عباءته ومن ذلك نأخذ شاهدا من كتاب الله تلك الآية التي كنا نقرأها في المرحلة الثانوية في محور المجاز في قوله تعالى: ﴿**إنّ الذينَ يُبايعونكَ إنَّمَا يُبايعونَ الله يدُ الله فوقَ أيديهِمْ**﴾(سورة الفتح، الآية: 10).

والشاهد في (يد الله) إثبات لها في الحقيقة أما أنّها مجاز والذي يمثل في قدرة الله ونعمته أو قوته وبالتالي نكون قد تجاوزنا اللغة ونفينا صفة أثبتها الله عز وجل لنفسه، وإذا حملنا ظاهر اللفظة على معناها كما هو في الواقع نكون قد شبهنا للخالق بالبشر يقول "الرّازي" في ذلك: «اِختلفت الأمة في تفسير يد الله فقالت المجسمة: إنها عضو جسماني كما حقُ كل أحد واِحتجُّوا عليه بقوله تعالى: ﴿ألهمْ أرجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أمْ لهمْ أيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ﴾(سورة الأعراف، الآية: 195) وجه الاستدلال: «أنه تعالى قدح في إلاهية الأصنام

بسبب أنه ليس بها شيء من هذه الأعضاء، فلو لم تحصل لله هذه الأعضاء لزم القدح في كونه إلاه ولما بطل ذلك وجب إثبات هذه الأعضاء له»[21].

ويذكر "الزمخشري" في ذلك بقوله: «يريد أنّ يد رسول الله التي تعلو أيدي المبايعين هي يد الله، والله تعالى منزّه عن الجوارح وعن صفات الأجسام»[22].

ويذكر في هذا المقام "عوّاد بن عبد الله المعتق": بأنّ تأويل اليد بالنّعمة أو القدرة باطل ويذكر قرينة أخرى من القرآن حيث وردت كلمة (بيدي) وهذا يقتضي أن تكون لله قدرتان فكيف يجوز أن تثبتوا له ذلك[23].

كما أنّه يحتمل أن يتعدد المعنى بين الحقيقة والمجاز ونأخذ من ذلك الشاهد في قوله تعالى: ﴿**وامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ**﴾(سورة المسد، الآية: 04). يقول "السيوطي" في ذلك: «إنّ امرأة أبي لهب كانت تلقي في طريق النبي صلى الله عليه وسلم الشوك فنزلت الآية»[24].

وقال "الزمخشري": «إنّها كانت تمشي بالنّميمة في رسول الله صلى الله عليه وسلم وتؤذيه بلسانها فتكون دلالة كلمة (الحطب) تعبيرا بالمجاز، وقد ورد هذا الإستعمال في كلام العرب: "يقال للمشّاء بالنّمائم المفسد بين النّاس يحمل الحطب بينهم أي يوقد بينهم الثائرة ويورّث الشر"»[25].

ويأتي الشعر وهو ديوان العرب وبه يستشهد في قياس كلام العرب على صحته أو فساده، وكان يحظى بالمكانة العالية بما يثيره لدى السامع من إعجاب، ودهشة من سحر كلامه الذي ينتظم وفق قواعد لا يحق لأحد أن يجاريه فيها إلا هو، ولعل هذه الإعتبارات ما جعلت من الشاعر يتجاوز ضوابط اللغة ويتصرف فيها كيفما شاء، وذلك لمكانته وقوة إستمالته للمخاطب ؛فيذكر في هذا الشأن "الخليل": «الشعراء هم أُمراء الكلام، يصرفونه أنّى شاؤوا ويجوز لهم ما لا يجوز لغيرهم من إطلاق المعنى، وتقييده ومن تصرف اللفظ وتعقيده...فيحتجّ بهم ولا يحتجّ عليهم، يصوّرون الباطل في صورة الحق، والحق في صورة الباطل»[26]، والشاعر صاحب رسالة تقوده إلى تجاوز الواقع ليصحح مسار حياة الإنسان ويصلح كل قصور عن بني البشر، ويذكر ذلك "منصور منّاف" بقوله: «وهو موقف الإنسان ذي الرسالة ورسالته هي الاحتجاج على أوجه القصور في الوجود البشري وتعقيم تقويم الوجدان وإثارة التأمل نحو مجاوزة الواقع»[27].

إن لقدرتهم الفائقة في إحداث الهوة في تصاريف الكلام وتأويله إذ أنهم: «ليسوا يقولون شيئا إلا وله وجه فلذلك يجب تأويل كلامهم على الصحة»[28]، ومن ذلك يعتبر الشاعر له حق التصرف في الكلام لامتلاكه ناصية اللغة، وضلوعه فيها، فحقَّ له أن يخرق العُرف ويرتكب الضرورات كما شاء، ولا يحق لنا أن ننعته بالقصور والضعف اللّغوي فإنه: «متى رأيت الشاعر

قد اِرتكب مثل هذه الضرورات على قبحها، وإنحراف الأصول بها فاعلم أن ذلك ما جشمه منه، وإن ذل من وجه على جوره وتعسفه، فإنه من وجه آخر مؤْذنٌ بصيّا له وتحطمه، وليس بقاطع دليل على ضعف لغته ولا قصوره»[29].

إن "عبد القاهر الجرجاني" حينما تكلّم عن التّباين في فضيلة البيان في الإنسجام للمعنى لا في اللفظ في حد ذاته فقال: «ومن البيّن الجلي أنّ التباين في هذه الفضيلة، والتّباعد عنها إلى ما ينافيها من الرّذيلة، ليس بمجرد اللّفظ كيف والألفاظ لا تفيد حتى تؤلف ضربا خاصا من التّأليف، ويعمد بها إلى وجه دون وجه من التّركيب والّترتيب»[30].

ويرى "ابن رشيق القيرواني": أنّه حُقّ للشاعر أن يتصرّف في الكلام وينْظم بالطريقة التي يراها دون أن يحاسبه أحد، فالشاعر يريد الإستقلال بشخصيته والإنفراد عن الآخرين فيحيد عن تقليد الشّعراء، ويُبدع في توليد المعنى بالطريقة التي يراها، وقد ذكر في هذا الشّأن ميزة "ابن الرومي" حين قال عنه كان: «ضنينا بالمعاني حريصا عليها، يأخذ المعنى الواحد ويولّده، فلا يزال يقلبه ظهر البطن ويصرّفه في كل وجه، وإلى كل ناحية، حتى يميته ويعلم أنه لا مطمع فيه لأحد»[31].

وبالتالي فالشعراء يحق لهم أن يبدعوا بأساليبهم التي هي أسمى طرق الإبداع ولذلك: «جوّز لهم شق المنطق وإطلاق المعنى»[32]، وهناك من الشعراء من ثار على الوزن، ويروي في ذلك "أبو فرج الأصفهاني" حيث يذكر "أبو العتاهية" حين يقول: «أنا أكبر من العروض...وله أوزان لا تدخل في العروض»[33].

إنّ خرق سنن الكلام من خلال اِختيار لغة، يتجاوز في حملها دون المساس بأصلها (أي ضوابطها اللّغوية) يدخل في تولد واِتّساع في عالم اللّغة، ويحافظ على تلك المعيارية فهو يبدع بتوليد معاني لا تخرج عن ضابط القاعدة لأن: «نحو اللغة المعيارية قادر على توليد هذه الجمل المنحرفة»[5].

إنّ تحُرر اللّغة من ضوابطها ومعياريتها، ومن مضامينها الجاهزة إلى تلك اللغة التي يتعدّد فيها المدلول وتطغى التّعابير الغامضة ليس للتّعجيز، ولكن من مبدأ "العقّاد" (لست مروحة للكسالى) فإعمال الفكر، والبحث عن المعنى المخبأ هو الخلاص من وصول معاني الإبداع كان ذلك مخاطبا أو متلقيا، فضبابية النص وكسر بعض المفاهيم ليس القصد منها إلا مراوغة القارئ الماهر؛ الذي يجد حلاوة التّفتيش في ثنايا النّص وعمقه ليصل إلى مبتغاه، ويفهم النص على اِختلاف وتعدّد قصدياته فيشمل بذلك قصدية صاحبه ويتجاوزها في بعض الأحايين إلى جديد ربما لم يتراءى لصاحب النّص في حد ذاته.

وهذا ما عبّر عنه "عبد السلام المسّدي" حين قال: «بيان المقاصد الدلالية، وفك أسرار الإيحاءات المعنوية وتأويل أوجه التداخل التركيبي وفقا لضوابط اللغوية العامة، أو النحوية الخاصة وهو ما اِستقر العرف عليه في مظان تراثنا بدءًا بتفسير القرآن وشرح الحديث، ثم اِطرًّد في شروح الشعر مع أمهات الدواوين»(34).

ويذكر "الجرجاني" في تموضع المعنى فيقول: «إنّ الخبر وجميع الكلام معان يُنشئها الإنسان في نفسه ويصرفها في فكره ويناجي بها قلبه، ويراجع فيها عقله وتوصف بأنها مقاصد وأغراض وأعظمها شأنا الخبر فهو الذي يتصوّر بالصور الكثيرة»(35).

ويتحدث "حازم القرطاجني" عن ولع النفوس بما هو جديد واِستساغته بمزية الإنفراد فيقول في ذلك: «ولمّا كانت النّفوس تحب الإفتتان في مذاهب الكلام، وترتاح للنقلة من بعض ذلك إلى بعض، ليتجدّد نشاطها بتجدّد الكلام عليها...فوجب أن يكون الشعر المراوح بين معانيه أفضل الشعر الذي لا مراوحة فيه»(36)، كما أن "القرطاجني" يرى في الإغراب في الشعر مزيّة تجعله إبداعا يتفنن الشاعر من خلاله في تحبيب أمر أو تكريهه: «الشعر كلام موزون مقفّى من شأنه أن يحبّب إلى النفس ما قصد تحبيبه إليها، ويكرّه إليها ما قصد تكريهه، لتحمل بذلك على طلبه أو الهرب منه...وكل ذلك يتأكد بما يقترن به من إغراب»(37)، وللشعر ثقافة كسائر الصناعات كما يقول "ابن سلّام الجمحي": «للشعر صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم، كسائر أصناف العلم والصناعات، منها ما تثْقفه العين، ومنها ما تثقفه الأذن، ومنها ما تثقفه اليد، ومنها ما يثقفه اللسان»(38)، ولعل من جملة التمييز بين وقع الشعر والنثر ما يذكره "جون كوهين" حين يقول:" «الفرق بين الشعر والنثر كمي أكثر مما هو نوعي، إذ إنما يتمايز هذان النوعان الأدبيان بكثرة الإنزياحات والفرق في هذه الكمية يمكن أن ينحدر إلى أقل ما يمكن فالحدود بين قطعة من النثر الروائي لـ "شاطور بريان" مثلا وما صنف ضمن القصيدة النثرية ملتبس جدا»(39)، ويضيف قائلا عن الفارق بينهما «الفارق بين النثر والشعر، وبين حالة للشعر وأخرى، تكمن فقط في الجرأة التي تستخدم بها اللغة الوسائل الممكنة والمسجلة ضمن بنيتها»(40).

إنّ اللّغة وما تعجّ به من مفردات، قد يتغير اللفظ ذاته في السياق ذاته؛ فالخطاب العادي بلغته المعيارية يوجه في كثير من الأحايين إلى لغة مباشرة وتزيد درجة الإبداع فيه متى كان التجاوز والخرق حاضرين، وبهذا تزداد شعريته من خلال الخروج عن المألوف.

إنّ الوصفية إجراء ألزمته الدراسة اللّغوية في بداية جمع اللّغة على اِختلاف لهجات القبائل وتباينها وتعددها وانتشارها في ربوع جزيرة العرب، فواقع الحال كان اعتماد تدوين ما جاء على لسان كلامهم، كما نطق بها العرب على سليقتهم، مع اختلاف المدرستين (البصرية

والكوفية) في جوانب تأصيلية، كان لكل منها حجته ومبرراته النحوية، حيث يذكر في هذا الشأن "أحمد سليمان ياقوت": «المنهج الوصفي أي وصف اللغة والظواهر النحوية كما هي في الواقع دون إدخال شيء عليها أو حذف شيء منها، بل هم اِتّبعوا في درسهم وتعليلهم المنهج المعياري، ذلك المنهج الذي لا يكتفي بوصف الظواهر النحوية، بل يتجاوز ذلك إلى بيان الصحيح الذي يجب أن يقال تبعا للقواعد العامة، وبيان نواحي النقص والخطأ في غير الصحيح حتى يسلم منها ويطابق الأصول المرعية»[41]، وإن كان في طرف المدرسة الكوفية حضورا قويا للمنهج الوصفي خصوصا في الدراسة النحوية وذلك «باِعتبار نظرتهم إلى النّصوص التي كانت نظرة وصفية لا تميل إلى النظرة العقلية أو الفلسفية، ومعالجة هذه النصوص في حالات كثيرة حسبما هي عليه، ولو أدى الأمر إلى اِستخراج قياس جديد ينطبق على النصوص الطارئة التي لم تخضع إلى القواعد المستقرة السابقة»[42] ويذكر "عبد الله أحمد جاد الكريم" بأنّ بدايات النحو كانت وصفية قبل أن تغلب سمة المعيارية «بداية وصفية ثم تحول شيئا فشيئا...حتى غلبت النزعة المعيارية»[43]..

مراجع البحث وإحالاته:

1- البيان والتبيين، الجاحظ، ج01/ص144

2-بيان إعجاز القرآن، الرماني، ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، حققها وعلق عليها: محمد خلف الله أحمد ومحمد زغلول، دار المعارف، مصر، ط:3، دت، ص:75 .

2- البلاغة تطور وتاريخ، شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ط:6، دت، ص107.

3-بيان اعجاز القرآن ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، الخطابي، ص26.

5- المصدر نفسه، ج93/01.

6- ينظر: النحو والدلالة، محمد حماسة عبد اللطيف، ص: 46.

7- ينظر: الدلالة والنحو، صلاح حسين، المكتبة الآداب القاهرة، ط01، 2005، ص: 139/138.

8- الخصائص، ابن جني، ج03/98-99.

9- البيت للعباس بن الأحنف، ذكر في دلائل الإعجاز، ص: 181 وفي الإيضاح في علوم البلاغة، ج06/01، والوساطة، ص: 66، والصناعتين، ص: 240.

10- دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، ص: 181-182.

11- دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، ص: 74

12-المصدر نفسه، ص: 183

13- النحو والدلالة، محمد حماسة عبد اللطيف ص: 104.

14- مدخل إلى علم الأسلوب، شكري عياد، دار العلوم للطباعة والنشر، السعودية، 1982م، ص: 28-29.

15- دلائل الإعجاز، عبد القاهرة الجرجاني، ص: 68.

16- المصدر نفسه، ص: 52.
17- تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة، شرح ونشر السيد أحمد صقر، المكتبة العلمية، الطبعة الثالثة، 1401هـ-1981م، ص:20-21.
18- دلائل الإعجاز، عبد القاهرة الجرجاني، ص: 393.
19- الحيوان، الجاحظ، ج211/1.
20- دلائل الإعجاز، عبد القاهرة الجرجاني، ص: 257.
21- التفسير الكبير، الرازي، ج03، ص: 427.
22- الكشاف الزمخشري، ج543/04.
23- ينظر: المعتزلة وأصولهم الخمسة وموقف أهل السنة منها، ص: 144-145.
24- لباب النقول في أسباب النزول، السيوطي، الدار التونسية للنشر، ط03، 1989م، ص: 344.
25- الكشاف، الزمخشري، ج04، ص: 241.
26- منهاج البلغاء وسراج الأدباء، حازم القرطاجني، تحقيق: محمد بالحبيب بالخوجة، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط02، 1981، ص: 143.
27- الإنسان المدينة في الشعر العربي الحديث، منصور مناف، بيروت، مركز التوثيق والبحوث، 1978م، ص:28.
28- منهاج البلغاء، حازم القرطاجني، ص: 144.
29- الخصائص، ابن جني، ج02، ص: 392.
30- أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني، ص: 22.
31- العمدة في محاسن الشعر، ابن رشيق القيرواني، ج02، ص: 57.
32- المحاسن والمساوئ، إبراهيم محمد البيهقي، تح: محمد سديد، دار إحياء العلوم، بيروت، ط01، ص: 427.
33- الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني، تح: علي مهنا وسمير جابر، دار الفكر للطباعة والنشر، لبنان، د.ط، م.د، ج04، ص: 16.
34- في آليات النقد الأدبي، عبد السلام المسدي، ص: 64.
35- دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، ص: 463.
36- منهاج البلغاء، حازم القرطاجني، ص: 361.
37- المصدر نفسه، ص: 71.
38- طبقات الشعراء، ابن سلام الجمحي، تح: محمود محمد شاكر، دار المدني، جدة، ص: 03.
39- بنية اللغة الشعرية، جون كوهين، ص: 23.
40-المرجع نفسه، ص: 242.
41- ظاهرة الإعراب وتطبيقاتها في القرآن الكريم، أحمد سليمان ياقوت، عمان، شؤون المكتبات، جامعة الرياض، ط01، 1981م، ص: 90.
42- الدرس النحوي في القرن العشرين، أحمد عبد الله جاد الكريم، ص: 230.
43- المرجع نفسه، ص:229.